

بسم الله الرحمان الرحيم

الموسيقى الآلية والتقليدية والمتطورة في تونس

من المعروف أن الموسيقى العربية الآلية بدأت بمحاكاة المغنى في ارتجالاته وهو ما يعرف في المشرق "بالمحاسبة" وفي المغرب العربي بـ "ردان الجواب" ثم تطورت الى جمل قصيرة مرتجلة يختبر بها العازف مدى مطابقة المقام الموسيقى مع الجو من حيث انسجام المقام مع حركات الكوكب وما بالإنسان من طبائع خاصة والمعروف أيضا أن بتونس تربط هذه المقامات بأوقات معينة من اليوم.

فمقام المياه يختص بالصباح الباكر وقد برز ذلك في كلمات نوبة "المياه" وفي عدة موشحات منها :

نشر الزهر فاح طير الأيك صاح

ومنها :

السحاب في السحر والليل ولي بطول

والصباح خالط على الأثر طلّت عليها خيول

ومقام رمل المياه خاص بالعشية ومنه موشحات نوبته

أسفرت شمس العشية أشرقت بين المماشي

قربوا كأسى إلي واعطفو عطف الحواشي

ومنها الخفيف الموالي

رونقت عشية حايل وشعاع الشمس مايل

كذهب على الأرض سايل

وبالنسبة لمقام "الذيل" فالمثل التونسي يقول :

إذا طوال عليك الليل عليك بنوبة الذيب

وهذا يذكرنا بالقولة العربية الشرقية :

إذا طال ليالك فارست أي تناول مقام الرست

وبالنسبة للمستمعين فقد طبع كل شخص بالميل إلى عزف مقام معين لذلك سمي المقام في المغرب العربي والأندلس بالطبع ويبين ذلك القاضي الشيخ عبد القادر الولشاريسي المتوفى سنة 955هـ/1584م في القصيد الذي نورد منه الأبيات التالية :

طبائع في عالم الكون أربع في مثلها أضرب للطبوع مجملا
فأولها السوداء والارض طبعها وبالبرد ثم اليبس قد خصها الملا
ثم يذكر تطابق المقامات مع طبائع الإنسان فيقول :

فنغمة صوت الذيل ثم فروعه يحرك للسوداء خذها مرتجلا
عراق ورمل الذيل تصغى للحنه ورصد له فارصده ان كنت ذا اعلاء

ثم يواصل :

وصفراء للمزوم فانسب فروعه غريب الحسين للطبع مكملا

ليختتم ب :

وصلني وسلم في ابتداءك أولا وختما على من للخلق أرسل

ثم تطور هذا الإرتجال ليبرز مدى تمكن العازف من المقامات وقد ذلك تطور إلى إبراز براعته في العزف ومن المؤسف أن هذه المقدرة على الارتجال ضعفت لدى الجيل الجديد من العازفين والحال أنه يمثل ركيزة هامة لموسيقى الحضارة الإسلامية.

وأما المعزوفات التقليدية فقد برزت على يدي "محمد الرشيد باي" ثالث ملوك الدولة الحسينية المتوفى سنة 1173 هـ/1759 م الذي تولى عن الملك لفائدة أخيه ليتفرغ إلى الأدب والفني فركز مع جماعته المعزوفات التي تشتمل عليها النوبة الأندلسية الأصل وأنتج على غرارها وهي الإستفتاح وهو قطعة مرتجلة على مقام النوبة تعزفها الفرقة جميعا بقيادة أحد العازفين يليها المصدر وهو قطعة ذات ثلاثة فروح أي ثلاثة أوزان تطبق فيها القاعدة التي سنها الموسيقار "زرياب" في الأندلس ، وذلك من حيث تدرجها من البطء إلى السرعة أولها المصدر يليه الطوق

فالسلسلة وهي عبارة عن جملة موسيقية تكرر على مختلف الدرجات

وفي منتصف النوبة لدينا معزوفة أخرى تعرف بالتوشية تبدأ على وزن البرول السريع ليفسح أثناءها المجال ليقوم أحد العازفين بالإرتجال تعود بعده الفرقة إلى نفس المقدمة تليها قطعة كبيرة على وزن البطايحي الذي هو عبارة عن وزن الصهباء الذي كان مشهورا في المدينة المنورة والذي طبق عليه الإسبان بعد قرون وزن الرمبه وجمعي قطع النوبة تكون مسبوقه بقطيعات صغيرة تعرف بالفراغات أي فارغة من الغناء وهي على غرار الدولاب في الموسيقى الشرقية .
وهنا نلاحظ ان الإنجازات الفنية تديم ذكر صاحبها، بينما السلطة السياسية تذهب بذهاب صاحبها وهنا يقول الشاعر :

إن الأمير هو الذي يبقى أميرا بعد عزله
وان ذهب سلطان الإمارة بقي سلطان فضله
توشية النهاوند

وعدد النوبات التقليدية ثلاث عشرة نوبة أضاف لها أستاذنا الشيخ خميس ترنان النوبة الرابعة عشرة في مقام النهوند وقد طالب مني إنتاج معزفاتها وقدمت في الذكرى الأولى لاستقلال تونس بعنوان "الخضرة" وقد أنتجت بعده اربعة نوبات بمعزوفاتها في مقام لم يقع تناولها تقليديا وهي العجم عشرين - الزنكولة التي قامت بدراستها وتحليلها الدكتورة أمل جمال الدين عياد " مشكورة وقدمتها ضمن منشورات كلية التربية الموسيقية التابعة لجامعة حلوان

وانتج مشارف في مقامات تونسية وخالف فيها القواعد التركبية مع ابتكار طرافة خاصة أبرزها في
بشارف المزموم الذي جعل كل خانة من خاناته على وزن خاص والحال أن البشرف التركي
يعتمد وزنا واحدا فقط وجعل نهايته بما يسمى بالعربي السريع الذي يبعث الحماس في الشباب
وألف هذا الشيخ خميس ترنان شمبر في مقام النوى والأستاذ محمد التريكي بشرف مقام الذيل
وأنتجت منها سبعة بشارف في مقامات العجم عشيران والكردي والمحير والنكريز والأصبهان
الذيل والعراق .

وأنتج الملك محمد الرشيد مع جماعته مجموعة من السماعيات على غرار التراث التركي منها
سماعي راسد الذيل الذي يشتمل حريبه على إيقاعين الخفيف والختم وكذلك سماعي الإصبعين
"حجاز" الذي انفرد ببدايته من الدرجة الرابعة للمقام ليقل على درجة المقر ثم يعاد ابتداء من
المقر لينزل أربعة درجات ويستمر هكذا حتى يعزف على جميع الدرجات وعلى أصنافها وبما أنه
يشتمل على مقامات الحجاز والنكريز والنهوند والراست والبياتي يصبح عازفه قادرا على تصوير
المقامات العربية على لكم الدرجات وأنصافها ولذلك فرضناه في امتحانات التخرج بالعزف على
الآلات حتى يكون المتخرج قادرا على هذه الخاصية (التصوير)

ونشرنا هذا التراث من المعزوفات من بشارف وسمعيات التقليدية في السفر الأول للتراث الموسيقي التونسي سنة 1959 وأنتج على غرار السمعيات أغلب الفنانين التونسيين ولي منها ثلاثة وعشرون سماعيا. وقد أجرينا مسابقة عربية في نطاق المجمع العربي للموسيقى سنة 1973 تناولت السماعي فاز فيها الموسيقار اللبناني المرحوم الأستاذ عبد الغني شعبان بتأليف سماعي متطور في مقام البياتي .

بشرف سماعي أصبعين

كما أنتجنا في تونس على غرار اللنفة التركية وجميع القطع المنجاة أفردنا بها السفر العاشر من التراث الموسيقي التونسي وقدم لها الأستاذ فتحي زغندة لو غنه جازكار

صالح المهدي

القطع المستحدثة :

ومع تونسة الإذاعة وبعث فرقتها الموسيقية الكبرى واستقلال البلاد سنة 1956 اشترك الفنانون التونسيون في إنتاج قطع موسيقية صغيرة كانت في آن واحد تدريباً للفرقة وتعزيزاً للرصيد الإذاعي ،

وانتجنا عدد هام من القطع الموسيقية الخفيفة سجل جميعها بالإذاعة نورد منها (حنين مجرده) ومجرده هواهم نهر بتونس لحنها في مقام الحجاز (حنين مجرده) ألقان : صالح المهدي

أنتجنا بإزاء ذلك مجموعة قطع وصفية تصور أحداث قصة يرويه المذيع مباشرة عند بث القطعة في الأربعينات كما أنتجنا مجموعة من القطع الراقصة على غرار ما قام به المرحوم الأستاذ فريد الأطرش ،
رقصة بنات تونس

القطع المستحدثة

ومع تونس الإذاعة وبعث فرقتها الموسيقية الكبرى واستقلال البلاد سنة 1956 اشترك الفنانون التونسيون في إنتاج قطع موسيقية صغيرة كانت في آن واحد تدريباً للفرقة وتعزيزاً للرصيد الإذاعي، أنتجنا بإزاء ذلك مجموعة قطع وصفية تصور أحداث قصة يرويه المذيع مباشرة عند بث القطعة في الأربعينات كما أنتجنا مجموعة من القطع الراقصة على كذلك قطعاً للعزف المنفرد منها قطع للبيانوا،
ومع تأسيس فرقتنا السمفونية أنتجنا في السبعينات من القرن الماضي مجموعة لآلات الفردية منها البيانو والكلايرينات والفوت والسكسوفون والهارب مع قطع سمفونية أدخلنا في جميعها مقامات وإيقاعات عربية قدمت في مهرجانات موسكو ولنين غراد وطهران .

واقتراحي على المجمع العربي للموسيقى الإستمرار على إقامة المسابقات العربية لإنتاج مختلف أنواع المعزوفات وحث كل قطر عربي على جمع ما لديه من قطع تقليدية ومستحدثة مع تدوينها وتسجيلها ثم نشرها وتعميمها على كل البلاد العربية، كإقامة عروض خاصة بالمعزوفات لبعث تقليد جديد في هذا المجال.

والله يوفقنا جميعا للسمو بموسيقانا العربية التقليدية والمتطورة والسلام

أ-د. صالح المهدي